الجنس.. والفن.. والانسان

بقلم غالي شكري

١ ـ محور الفن منذ فجر التاريخ

لعل عظمة الانسان الاول ، تكمن في صراعه الجبار مع الطبيعة في تلك المرحلة الباكرة من تاريخ البشر . ذلك انه رأى نفسه فجاة امام اعداء لم يتعرف بهم تعرفا كافيا . فالوحوش تزغرد بطونها حين تراه ، والليل يرخي على عينيه ستارا كثيفا اسود ، والسماء ترشق جسده باسياخ ملتهبة تارة ، او تحول الدماء في عروقه الى سائل من الثلج تارة اخرى . والفضاء الهائل يلف كيانه الضئيل في ثوب خرافي ، وكانه في حلم مزعج .

كان الانسان الاول لذلك بطلا ، حين يزحف على بطنه اذا اتصلت بانفه رائحة قادمة من رمة حيوان ، او كومة من الديدان ، او شجرة فاكهة يتسلق عليها ، بما تبقى لديه من عادات قديمة .

وفي أحيان كثيرة ، كان الرجل البدائي يلتقي بالمراة ، فيحس في قربها حنينا ورغبة مبهمة .. ثم يزدادان قربا وتآلفا ، وتتبدد الرغبة المبهمة رويدا ، في اتصال بدني حميم .

وهكذا لم تعد العلاقة ا لجنسية في ذلك الوقت البعيد ، ان تكون هذا اللقاء الخاطف السريع في غمرة الكفاح المضني من اجل البقاء . وهكذا ايضا نستدل ، على ان الانسان الاول لم ير « الجنس » كاحدى « مشكلات » حياته ، وان رآه بالفعل « كحاجة ملحة » .

وليس شك ان هذا الانسان ـ في ظل ظروفه الصعبة المريرة ، وتكوينه العضوي البدائي ، كان يجتاز مرحلة ذهول تعبر عن الجانب الذهني لطفولة الجنس البشري . ومن ثم لم يكن واعيا تماما بكل ما يحيطه من مظاهر واحداث . وبواسطة هذا الذهول ، يفسر علماء الانتروبولوجيا كيف ان فنونا لتلك الفترة لم تصلنا على الاطلاق .

ولكن الطور الجديد في حياة الانسان ، كان يجمع بين افراده في فئات متفرقة ، بعد ان نجحوا في تحويل الحجارة الى اسلحة صغيرة تمكنوا بها من اصطياد الحيوان .

وما ان تكونت هذه الجماعات ، وبمعنى ادق ، ما ان تكون المجتمع الانساني الاول ، حتى بدا الاحتكاك الذهني بين عقول الافراد ، يولد خبرات اكثر نضجا ، ويذيب الى حد كبير ، ما يكسو وعيهم من ذهول . ويدفع بهم شيئا فشيئا الى مراحل اكثر تقدما ، كلما استطاعت رؤوسهم ان تفسر مظهرا ما في الطبيعة .

وكان من النتائج الهامة لنشاة المجتمع البدائي ، ان تقاربت المسافة بين الرجل والمراة ، واصبحت العلاقة بينهما اكثر من لقاء خاطف سريع وتغير بالتالي معنى الجنس الذي ترسب في كيانها خلال النضال الفردي في الغابة . وقد كشفت لنا بحوث العلماء عن المعنى الجنسي الجديد الذي رافق المجتمع الاول في ظل الزواج الجماعي . فقد استطاع الانسان انذاك ان يعبر عن هذا المعنى في بواكير فنونه . وفي احد طقوسهم السحرية كانوا يرمزون للعضو الذكري بسيف ، او بحربة ويرمزون للعضو الانثوي ، بحفره . ويمارسون رقصات سحرية يعتقدون انها تحدث الخصب ، بتمثيل العملية الجنسية . كالذي يرويه يونج عن بعض القبائل الاسترالية ، من انهم اذا جاء الربيع يحفرون حفرة في الارض ، ويحيطونها بالشجيرات لتمثل عضو الانثى ، ويرقصون حولها طول الليل ، وهم ممسكون بالحراب امامهم هيئة تمثل عضو الذكر ثم يقذفونها في الحفرة ، وهم يصيحون : ليست حفرة ، ليست حفرة بل فرج (١) .

والمفهوم الجنسي الذي نتعرف عليه ، من خلال هذا المثل ، هو ان العلاقة الجنسية لم تعد هذه الحاجة الملحة التي كان يشعر بها الانسان قبلا وحسب .. وانما اضحت وسيلة للتكاثر العددي الذي يزيد من قدرة الجماعة على مواجهة الاعداء في الغابة . كان الكفاح الجماعي هو نواة المعنى الجديد ، ثم راحوا يرمزون به لبقية انواع التكاثر ، اذا راو النباتات تزدهر اخضرارا في الربيع وتذبل في بقية فصول السنة ، فكان « التعبير الجنسي » للاخصاب ، يفتق اذهانهم على تلك الرقصات السحرية . فاذا اضفنا ان الملكية الجماعية لكل شيء كانت الطابع المميز للمجتمع البدائي استطعنا ان نقول في غير حذر بان الجنس لم يكن احدى مشكلات هذا المجتمع في ظل الزواج الجماعي الذي يتيح فرصا متساوية لاعضاء الجماعة .. ومن ثم كان التعبير الفني المباشر عن هذه العلاقة ،هو الرمزبها الى الخصب والنماء والحياة.

* *

ولكن طورا تقدميا جديدا ، كان في انتظار الانسان .. فقد تخللت الملكية المشاعية ، بمصاحبة الظروف الطارئة الجديدة ... ونرى ملامح التقدم في قدرة الانسان وبخاصة في استئناس بعض الحيواناتوتربيتها والاشتغال بالرعي .. ثم في تعرفه على بعض اسرار هذه النباتات التي تنمو في الربيع وتذبل فيما بعد ... وعرف الزراعة . وبواسطة الرعي والزراعة ـ أي بعد ان تغيرت وسائل انتاج مقومات حياته من الات الى قطعة الارض ـ دخل الانسان مرحلة جديدة هي مرحلة الملكية الفردية .. اذ سرعان ما هيمن على اكبر مساحة من قطعة الارض ، هؤلاء الذين كانوا يتبوأون مراكز قيادية في الجماعة مثل الكهنةوالشيوخ ورجال الحراسة .

وبدا معنى المراة في المجتمع الجديد يتغير .. كانت فيما مضى ، تشارك الرجل « العمل » من أجل البقاء . ولكنها في المجتمع الجديد حرمت نعمة العمل ، وحرمت بالتالى مركزها القديم ، مركز المساواة التامة بالرجل. كان ميدانها من قبل هو الحياة نفسها، فاصبح هذا الميدان هو « البيت » فقط ..

ليس ذلك فحسب .. بل هناك الحروب التي بدات تقوم بين المناطق المختلفة ، لجلب قطعان الحيوانات عن ايسر طريق ، وهو القتال . وكان المحاربون يحصلون بعد غزواتهم على شيء اكثر اثارة من الحيوانات ـ وان لم يكن اكثر اهمية ـ وهو الاسرى من الرجال والنساء .

اما الاسرى من الرجال ، فقد اضيفت ايديهم الى بقية الايدي العاملة بالمجان ، بعد ان وصلت الحال بالبعض انْ يبيعوا مالديهم من مساحات صغيرة من الارض الى الذين يملكون المساحات الكبيرة ، ليقرضوهم مايقوم باودهم ، وانتهى بهم الامر ، لان يعملوا في ارض هولاء المالكين الكبار ، لقاء الاحتفاظ بحياتهم فقط (٢)

اقول ان الايدي الوافدة مع الاسرى اضيفت الى تلك الايدي المجانية

---

(١) Jung : Psychology of the Unconscious, (P 16)

(٢) L.H. Morgan, Systems of Consanguinty and Affininty of the Human Family, Washington (1871-ED)

وانقسم المجتمع الانساني منذ ذلك الحين الى سادة وعبيد .

اما الاسرى من النساء ، فقد بدا بهن عصر الاماء والجواري ، لينقص اكثر واكثر من قيمة المراة فعيدة البيت .

ومع بداية الملكية الفردية لوسائل الانتاج ، كانت العلاقات الجنسية بين الافراد ، تتطور مع نمو المجتمع الجديدمن الزواج الجماعي ، الى الزواج الفردي (٣)

* *

تعبير « الزواج الفردي » مطابقا للوضع القائم في ذلين الحين لان « الفردية » هنا جاءت كليشيها رسميا ـ او شرعيا لمعنى العلاقة الجنسية في ظل المجتمع الجديد .. « الفردي » ولكن .. هل كان يمكن لمثل هذه العلاقات ان تكون فردية بالفعل ؟

ان جوابنا عن الرجل سهل ميسور ، فسلطانه الاقتصادي يكيف سلطانه الاجتماعي ، بحيث تكون حريته الجنسية شيئا طبيعيا : للسادة في احضان الجواري اولا ، ثم في احضان زوجات اقرانهم نهاية الامر والعبيد لها الحقوق نفسها ، وان لم يكن على المستوى نفسه .

وجوابنا عن المراة اكثر سهولة ويسرا .. لان علاقاتها بالرة مستمدة بالضرورة من علاقاته هو بل متممة لهذه العلاقات .

وهكذا كان الزواج فرديا من حيث المخدع الذي يضم رجلا وامراة وحدهما بغض النظر عما اذا كان هذا الرجل هو زوج هذه السيدة .. او العكس . وتولدت على الفور معاني جديدة لم تخطر على بال الانسان من قبل : الخيانة ، علاقة غير شرعية .. الخ ... وظهرت حرفة جديدة لبعض النساء اللاتي يجدن لقمة الخبز في احضان من يملكه ، وطبع المجتمع اجسادهن بخاتم غريب هو البغاء .

وحمل الينا التاريخ فنونا مختلفة لهذا المجتمع العبودي الاول .. صورت لنا الوجدان البشري في ذلك الوقت البعيد ، ومفاهيمه المتعددة لهذه الحاجة الملحة التي اصبحت ـ لاول مرة . مشكلة يومية في حياة الناس ، عبرت عنها اخلص تعبير : اساطيرهم وطقوسهم ، وبقية وسائلهم البدائية في التعبير .

ففي التوراة تقرا حكاية « سدوم وعمورة » وكيف احرقها الله ، لما وقعت فيه من خطايا تنوء عن حملها الجبال . فاخرج الله منها اسرة واحدة لم تتورط في الخطيئة هي اسرة لوط ، ثم احرق المدينة . وتقص التوراة كيف ان لوطا سكن في احدى مغارات الجبل هو وابنتاه .. « وقالت البكر للصغيرة : ابونا قد شاخ ، وليس في الارضرجل ليدخل علينا كعادة كل اهل الارض . هلمي نسقي ابانا خمرا ، ونضطجع معه فنحيي من ابينا نسلا . فسقتا اباهما خمرا في تلك الليلة ، ودخلتالبكر واضطجعت مع ابيها . وحدث في الغد ان البكر قالت للصغيرة : اني قد اضطجعت البارحة مع ابي . نسقيه خمرا الليلة ايضا ، فادخلي واضطجعي معه ، فنحيي من ابينا نسلا . فسقتا اباهما خمرا في تلكالليلة وقامت الصغيرة ، فاضطجعت معه »(٤) .

والمشكلة الاساسية في هذه الاسطورة هي «الجنس» رغم الاعذارالتي توسلت بها البنت الكبرى لاغراء الصغرى ،من ان هدفها هو انجاب النسل ولكن الاخلاقيات المحيطة بالاسطورة لاتعتبر هذا الامر « خطيئة » في عيني الرب . فقد اختار هذه الاسرة وحدها ـ لزاياها الخلقية بغير شك ـ ولم يصدر عنه فيما بعد ، مايشير الى ان في الامر « خطيئة » . فاذا كانت الالهة والتقاليد والعادات ، تشكل منهج الحياة الاجتماعية لتلك المرحلة البعيدة ، فاننا نفهم من ذلك ان الاسطورة اوضحت لنا جانبا هاما في هذا المنهج . فلم يكن شاذا او غريبا ، ان تضطجع البنت مع ابيها .. رغم ما تذكره الحكاية من ان هذا الاب لم يكن يدري بهذه المضاجعة .

الحكم الاخلاقي ، غير المباشر ، الذي نستخلصه هو ان « الجنس » ليس « شرا » في هذه الدائرة الضيقة ، التي ما انتتسع حتى يصبح شرا كبيرا . وفي اسطورة « شمشون ودليلة » نضع ايدينا على هذا المعنى . كان شمشون يباهي الاخرين بعضلاته ، ويزهو عليهم بقوة شكيمته ، فاغتاظوا من تحقيره لشانهم على هذا النحو ، ودبروا مؤامرة لقتله .وكانوا يعرفون انه يتردد على احدى البغايا فاتفقوا معها على ان تمدهم بسر جبروته ، اذا نجحت في الحصول على هذا السر ، لقاء مبلغ من المال وتم لهم ما ارادوا .. فقد استرخت عضلات شمشون على حجر المراة ، وفي لحظة ضعف باح لها بمكنون سره ، فحلقت له شعر راسه حيث يرقد هذا السر ـ وفارقته قوته في التو واللحظة ، ثم سلمته الى اعداء له (٥)

الجنس هنا هو « الشر » فالالهة تسحب « سرها » من شمشون ، بمجرد ارتمائه بين ذراعي امراة . اى فور اقترابه الخطيئة وسقوطه في الشر . والاسطورة تصف المراة صراحة بانها « زانية » .. والبغاء هو في صميمه خروج عن القانون الالهي الذي يعبر عن الارادة الرسمية للمجتمع في تكوينه الخلقي الجديد .

وقد اكدت الاساطير الدينية هذا المعنى الجديد للجنس اكثر من مرة . فقصة يوسف الصديق ترويها التوراة ، ومن بعدها القران،لتوضيح الفروق الحاسمة بين الخير والشر . ويبدو العلاج الفني للاسطورة، وقد اكتسى بالمظاهر البدائية لعملية الخلق الفني . فاننا الان ، نشك كثيرا في وجود هذا النموذج المثالي . الذي تتجسد صفاته الخيرة في يوسف(٦) في ذلك الوقت المبكر من تاريخ المجتمع البشري . ونكاد نوقن ـ تبعا لذلك ـ ان خالق الاسطورة اراد ان يجسدمعنىالخير ـ المتمثل فيالامتناع الاختياري عن اشتهاء نساء الاخرين ـ في مخلق بشري،رغم انتفاء وجوده الطبيعي فيالواقعالاجتماعي المحيطبه. ثم حاولان يجسدمعنى الشرفي امراة العزيز ، التي هي نموذج لكثير من نساء ذلك العصر . وترك عملية الصراع بين يوسف وزوجة سيده .. بين الخير والشر .. لينتصر الخير ـ المختلق أصلا ـ كقانون اجتماعي يسود العلاقات الانسانية بين الافراد ، موحيا بما يجب ان تكون عليه هذه العلاقات ، والمصير ـ الشرعي ـ الذي ينتظر منيحاولالخروج عن قانونها .

ومن الواضح ان هذه الاساطير ، قصد بها «الوعظ» اولا واخيرا.. وان تكامل بناء الاسطورة من الوجهة الفنية ، فلم ترد فيها كلمة وعظية واحدة . ولكنها ـ ككل ـ استهدفت للتدليل على ان الطريق الصواب هو ما يمكن ان نهتدي اليه بعبرة هذه الاسطورة او تلك . واتضحت هذه الغاية ، حين كانت تتحدث الاسطورة عن احد العظماء من المشاهير. وفي التوراة قصة داود الملك الذي « كان يتمشى على السطح ، فراى من فوقه امراة جميلة تستحم . وكانت المراة جميلة المنظر جدا ، فارسل داود في طلبها ، وقيل له : اليست هذه بتشيع بنت اليعام امراة اوريا الحثي ؟ فارسل اليها داود ، واخذها فدخلت اليه . واضطجع معها وهي طاهرة من طمثها ، ثم رجعت الى بيتها . وحبلت المراة ، فارسلت من يخبر الملك بانها حبلى . فارسل داود الى قائد جيشه يطلب اوريا الحثي ؟(٧) . فاتى اوريا اليه . وبعد ان ساله داود عن الحرب قال له ان ينزل الى بيته ويغسل رجليه (٨) . فخرج اوريا ، ونام ليلته على باب بيت الملك مع بقية عبيد سيده ، ولم ينزل الى بيته . ولما علم داود

---

(٣) لم تكن العلاقات الانسانية تتطور من مرحلة الى اخرى ، فور التشكيل الجديد للمجتمع . فقد كان يحدث ان تترسب تقاليد مرحلة سابقة في ظل الكيان الاجتماعي الجديد ، وتمضي فترة ـ تطول او تقصر حسب الظروف ـ الى ان تتفق العادات والتقاليد والعلاقات الانسانية بين الافراد مع التركيب الاجتماعي الجديد .

(٤) سفر التكوين ـ (ص ١٩ ـ ع ٣٠ : : ٣)

(٥) سفر القضاة ـ (ص١٦ ـ ع ١ : ٣٢).

(٦) وسنرى ـ فيما بعد ـ انه نموذج متداول في اساطير شعوب كثيرة مختلفة .

(٧) نفهم ان زوجها كان جنديا في الجيش ، يحارب وقتها في احدى المعارك .

(٨) غسيل الارجل معناه الاستعداد لان يقضي الرجل ليلة مع زوجته .

واجه اوريا قائلا : اما جئت من السفر ، فلماذا لا تنزل الى بيتك ؟ فقال اوريا : ان عبيد سيدي (٩) على وجه الصحراء ، وانا آتي لآكل واشرب واضطجع مع امرأتي ؟ اقسم بحياة الملك اني لا افعل هذا الامر . فقال له داود : اقم هنا اليوم وغدا اطلقك . ودعاه داود فأكل امامه وشرب وسكر . وخرج في المساء ، واضطجع مع عبيد سيده ، والى بيته لم ينزل . وفي الصباح كتب داود الى قائده ان اجعلوا اوريا في وجه الحرب الشديدة ، وعودوا خلفه ، فيضرب ويموت . وكان في محاصرة القائد للمدينة ، انه جعل اوريا في الموضع الذي علم ان فيه رجال البأس من الاعداء . فخرج رجال المدينة وحاربوا ، فسقط بعض الشعب من عبيد داود ، ومات اوريا الحثي ايضا . فأرسل القائد واخبر داود بجميع اخبار الحرب . واوصى الرسول قائلا : عندما تفرغ من الكلام مع الملك ، ورأيت ان غضبه اشتعل ، فقل له ان عبدك اوريا الحثي قد مات . فذهب الرسول واخبر داود بكل شيء . فقال داود للرسول ، قل للقائد ، ان لا يسوء هذا في عينيك ، لان السيف يأكل هذا وذاك . شدد قتالك على المدينة واخربها . فلما سمعت امرأة اوريا انه قد مات ، ندبته . ولما انتهت المناحة ضمها داود الى بيته وصارت له امرأة .

واما هذا الامر الذي فعله داود ، فقبح في عيني الرب»(١٠)». وفي مكان اخر تقول الاسطورة : « هكذا قال الرب : ها انذا اقيم عليك الشر، فتؤخذ نسائك امام عينيك ، واعطيهن لاخرين فيضطجعوا معهن في عين الشمس(١١)» .

ولقد آثرت ان انقل النص كاملا ـ رغم الترجمة العربية السيئة ـ حتى نرى الى اي مدى يؤثر المضمون الانساني للاسطورة على بنائها الفني . ومرة اخرى اقول ، ان المحاولات البدائية لعملية الخلق الفني تبدو هنا واضحة . فشخصية « اوريا الحثي » نموذج يكاد يكون معدوما في مثل ذلك المجتمع . ولقد صورته احداث الاسطورة، كجندي، بطل شجاع . وليس هذا الشيء الغريب . وانما ما نقف عنده حيارى، ان يدعوه الملك ـ وليس هو الا احد عبيد سيده ـ ويأمره بأن يقضي الليلة مع زوجته ، فيمتنع عن الامتثال للامر بحجة خيالية غير معقولة . ولا شك ان هذا وجه فني جميل لهذا الموقف ، هو ان الملك اراد ان ينسب بنوة السفاح القادم لهذه الليلة التي يقضيها اوريا مع امرأته .

ونعود الى القضية الاساسية في الاسطورة . لا ريب انها مشكلة جنسية من بدايتها لنهايتها .. ولكن لنر كيف عولجت في هذا الاطار البدائي من الفن ، بالذات .

لا يدهشنا ، بالطبع ، انها كانت صادقة التعبير لدرجة كبيرة ، عن حقيقة التكوين الاجتماعي لهذه الفئة من البشر في ذلك الزمن . فالجنود ـ بل والشعب جميعا ـ هم عبيد سيدهم . وهذا السيد لا يكتفي بما يملأ جنبات داره من « الحريم » فما ان تصيب عيناه جسدا لامرأة جميلة تستحم ، حتى يرسل من يأتي له بهذه المرأة ، فيأخذ منها ما يشتهي ، ثم « يضمها » الى بقية القطيع . وهكذا حددت لنا الاسطورة بواسطة الجنس ـ المكانة الحقيقية للمرأة في ظل المجتمع العبودي ..

واذا كان الجنس في علاقاته غير الشرعية ـ هو « شر » تمثله امرأة العزيز في قصتها مع يوسف فانه هذه المرة « شر » ايضا .. يمثله الملك داود . وكان الاسطورة الشعبية القديمة ، قد رسمت بمنتهى البراعة ، ما كان يرسف فيه البشر « العبيد » من اغلال ، تمسك بها الصفوة من « السادة» . ولذلك قال القانون الاجتماعي كلمته حين تنبأ لداود بأن الاخرين سيهتكون اعراض نسائه في عين الشمس . لقد كانت الصيحة التاريخية للقطاع العريض المسحوق . كما اتضح لنا كيف ان الجنس بات مشكلة حقيقية يعانيها هذا المجتمع ، منذ نصب في هذا القالب العبودي .

كان المجتمع قد انقسم الى قطاع ضيق مستغِل، وقطاع واسع مستغَل ، فكان الاستغلال هو قانون هذا المجتمع. وعكست الاساطير هذا الوضع في علاقة انسانية حيوية هي الجنس . وقدمت لنا الصورة الاستغلالية التي تتم بها هذه العلاقة .

* *

ولقد ادهشني حقا ، هذا اللقاء الغريب بين عدة اساطير من شعوب مختلفة ، حيث نرى الجوهر الانساني في جميعها واحدا . ففي الادب المصري القديم ، نقرأ « قصة الاخوين » اللذين كان كبيرهما « انوبيس » مع شقيقه الاصغر « باتا » في الحقل يبذران بعض المحاصيل . فاحتاجا الى بعض البذور ، وذهب الاخ الاصغر الى البيت ليحضره . وكانت زوجة اخيه الاكبر تمشط شعرها ، فما ان رأته حتى بهرها جماله وكأنها تراه لاول مرة ، فراودته عن نفسه ، واغلقت الابواب فجرى الشاب من امامها غاضبا ، وهو يقول « تأملي انك بمثابة ام لي، فماذا تريدنني ان افعل ؟ هذه الجريمة الشنعاء ؟ » خافت زوجة اخيه ، فما ان عاد « انوبيس » في المساء ، حتى زعمت له ان اخاه اراد منها امرا « فلم اصغ ، وقلت له : الست امك ؟ او ليس اخوك كأب لك ؟ فخاف ، وضربني ليمنعني من اخبارك بالامر . والان اذا سمحت له بالعيش ، فسأقتل نفسي (١٢) .

وهناك اسطورة يونانية تقول ، انه بينما كان « نيسيوس » غائبا في احدى رحلاته البعيدة ، اغرمت زوجته « فيدرا » بابنه من امرأة اخرى ، وحاولت اغراءه بالاثم ، فامتنع وغضب ، وخشيت «فيدرا» عاقبة امرها ، فزعمت ان الفتى حاول ان يفضحها ، وانتحرت تاركة خطابا لزوجها يحمل هذا النبأ الكاذب (١٣) .

وفي « الف ليلة وليلة » نقرأ قصة الوزراء السبعة ، حيث تدعي جارية الملك ان ابنه راودها عن نفسها ، وفي قصة قمر الزمان تعشق زوجتاه كل منهما ابن الاخرى ، ثم تشكوانهما لابيهما ، كما شكت امرأة العزيز يوسف لزوجها (١٤) .

وتتشابه نهايات هذه القصص ، لدرجة كاد النقاد يجمعون ازاءها، ان هذه الاساطير ـ على تعددها ذات اصل واحد ، ربما كان اقدمها هو الاسطورة المصرية القديمة . ولكني لست اميل الى هذا الاعتقاد ، وانما ارى في تشابه ظروف المجتمعات البدائية ، عاملا حاسما في تشابه اساطيرها . ولما كان الجنس موضوعا عاما وحيويا ، فقد كان قضية مشتركة في حياة جميع الشعوب ، وان تلون ببعض سماتها الخاصة. فالاسطورة التي تجمع بين الخير والشر في صراع عنيف كهذا الذي لمسناه في الاساطير الاربعة المتشابهة .. لا اشك في انها تحدد تلك الاوضاع الاجتماعية البعيدة المتشابهة . وما اختلاف الاسماء والتفاصيل والنهايات الا اختلاف الصفات الذاتية المفصلة .

ولقد اراد فرويد ان يعطي لقصة الاخوين المصرية ، معنى خاصا ، استمده من فلسفته في الجنس ، فقال ان « عقدة اوديب » هو محور الازمة بين الغلام وزوجة اخيه ، اذ رأى فيها « امه » ولكن هذا التفسير المتعسف يذوب بعد ان ادركنا الفكرة الحقيقية الكامنة وراء الاسطورة وشبيهاتها ، اي فكرة الخير والشر التي تمثلها الانسان القديم في هذه الصورة الوعظية الساذجه ، اعتبر فيها الجنس شرا ، ما دام يخرج عن « الحدود الشرعية » التي رسمها اول مجتمع آمن بالملكية الفردية .

ولو اراد فرويد ان يبحث عن اسطورة تتفق ـ في مظهرها ـ مع فلسفته ، لوجدها في حكايات الف ليلة وليلة ، وفي قصة « جودر الصياد ابن التاجر عمر » على وجه التحديد . فقد ذهب جودر مع عبد الرحمن المغربي الى النهر لفتح كنز الشمردل ، واوصاه المغربي

ـ التتمة على الصفحة ٥٢ ـ

(٩) الجنود .
(١٠) سفر صموئيل الثاني ـ (ص ١١ ـ ع ١ : ٢٦) .
(١١) المصدر السابق ـ (ص ١٢ ـ ع ١٢) .
(١٢) سليم حسن ـ الادب المصري القديم (ص ٨٧) .
(١٣) د. شكري عياد ـ البطل في الادب والاساطير ـ (ص ١٥٢).
(١٤) د. سهير القلماوي ـ الف ليلة وليلة (ص ٣٠٧) .

الجنس والفن والحضـــارة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٨ ـ

بانه متى جف النهر على اثر تمتماته وعزائمه ، وظهر له باب من الذهب كباب المدينة ، فعليه ان يهبط اليه ويطرقه طرقة خفيفة ، ثم طرقة اثقل من الاولى ، ثم ثلاث طرقات متتابعات ، فيسمع قائلا يقول : من يطرق باب الكنوز ، وهم لم يعرف ان يحل الرموز ؟ ثم يقاسي اهوالا بعـد اهوال ، والابواب تفتح له الواحد تلو الاخر ، الى ان يقبل دور الباب السابع ، فيوصيه المغربي « ثم ادخل الى الباب السابع واطرقه ، فتخرج لك امك ، وتقول : مرحبا يا بني ، فقل لها : اخلعي ثيابك . فتقول يا بني انا امك ، ولي عليك حقوق الرضـاعة والتربية : كيف تعريني ؟ فقل لها : ان لم تخلعي ثيابك قتلتك. وانظر جهة يمينك تجد سيفا معلقا في الحائط،فخذه واسحبه عليها،وقل لها اخلعي، فتصير تخادعك وتتواضع عليك ، فلا تشفق عليها . فكلما تخلع لك شيئا قل لها اخلعي الباقي . ولم تزل تهددها بالقتل حتى تخلع جميع ما عليها وتسقط . وحينئذ تكون قد حللت الرموز » .

وحين ابدى جودر الجزع من هذه الاهوال العظيمة ، قال له المغربي: يا جودر لا تخف ، انهم اشباح من غير ارواح . وعمل جودر بالوصيـة، فلم يهب الموت ، وانفتحت له الابواب السبعة ، حتى وقف امام امـه، فجبن ونسي انها شبح بلا روح ، ثم عاد الى المغربي الذي شدد عليـه في التوصية قائلا « لا تظن ان المرأة امك ، وانما هي رصـد في صـورة امك ، ومرادها ان تغلطك » فعاد جودر ، وما ان قالت له المرأة : مرحبا يا ولدي ، حتى اجابها : من اين انا ولدك يا ملعونة ، اخلعي ، فراحت تخادعه ، وتخلع شيئا بعد شيء ، حتى لم يبق عليهـا غير اللباس . فقال اخلعي يا ملعونة . فخلعت اللباس وصارت شبحا بلا روح ..

ربما استطاع فرويد ان يستلهم احداث هذه الحكاية لتاكيد نظريته في الجنس . غير اننا لو تاملنا قليلا هذه الاحداث ، لما عثرنا على عقدة اوديب المزعومة . فقد خطا المجتمع البشري خطوات واسعة منذ ايام لوط ـ حيث لم يكن حراما ان تضطجع معه ابنتاه ـ الى ايام جودر، حيث تحددت العلاقات الجنسية بين الافراد واصبحت رابطة الدم تحرم قيام العلاقة بين افراد بعينهم كالام وابنهـا ، والاب وابنتـه ، والاخ وشقيقتـه .

ونحن نقف من حكاية الف ليلة وليلة على هذا المعنى . فلو ان جودر كان مصابا بعقدة فرويد ، لما اهتم بممانعة امه في كثير او قليل ، ولما ارتد الى المغربي يلتمس نصحه . حتى ان هذا اجابه صراحة ، بان الصورة التي تطالعه بها هذه المرأة ، ليست لامه ، وان حاولت خداعه والحكاية بذلك تعبير عن القيم والمثل النابعة من البنيان الاجتماعـي الجديد ...

ولو تخلينا عن الاطار الفرويدي لماساة اوديب نفسها .. لما راينـا في الامر عقدة جنسية على الاطلاق . والماساة كلها ، هي ازمة البطولة الفردية التي عاناها المجتمع اليوناني في ظل العبودية . وعندمـا استوحى سوفوكليس تراجيديا اوديب من الاسطورة القديمة ، كـان على وعي تام بكارثة القصور الذهني ، وطفولة المعرفة الانسانيـة، التي تحول ـ بشكل ظاهر ـ بين البطولة الجماعية لذلك ترسب في كامنة الاديب اليوناني القديم ، ان ظروفا نادرة جدا ، يمكنها ان تصنع ذلك الفرد الممتاز الذي يستحق عن جدارة لقب البطولة .. مهمـا قادته بطولته وامتيازه الفرديين الى هاوية الماساة .

ولنستعرض معا ماساة اوديب منذ تنبات له بانه سيقتل اباه ويتزوج امه . فلما ولد اوديب سلمه ابوه الى احد رعاته ليقتله ، ولكن هذا الراعي اشفق عليه ، واعطاه لراع من رعاة الملك يوليوس ملك كورنثة . واخذ الراعي الثاني (الوليد) الى الملك ، ففرح به لانه كان عقيمـا ونشاه كابنه حتى شب . ثم تنبأ عراف اوللو للفتى ، بانه سيقتـل اباه ويتزوج امه (١٥) . ولم يكن اوديب يعرف له ابا غير يوليوس ولا اما غير زوجته الملكة ، فرحل عن كورنثة حتى لا يقع في هذين الاثمين الفظيعين . وفي الطريق صادف شيخا يركب عربة ، وضربه الشـيخ بسوطه لينحيه عن الطريق . ففضب اوديب وضربه بعصاه ضربـة قتلته .. وكان هذا الشيخ هو والد اوديب ، وبذلك تحققت النبـوءة الاولى . واقترب اوديب من طيبة ، وكانت قد ابتليت بوحش فظيـع ظل يطرح على اهلها لغزا محيرا ، وكل من عجز عن حله قتله . وقـد اجمع اهل المدينة بعد موت ملكهم على ان من ينقذهم من هذا البـلاء، جعلوه ملكا عليهم وزوجا لملكتهم ... فتقدم اوديب الى الوحش ، وحل اللغز ، وانقذ اهل المدينة ، واصبح ملكا مكان ابيه، وتزوج امه جوكاسته، وبذلك تمت نبوءة .لعرافين .

هذا هو موجز الاسطورة ، الذي يضع بين ايدينا الحقائق التالية:

ـ ان الماساة الحقيقية لاهل طيبه تكمن في جوف هـذا الوحش الفظيع ، الذي يتسع في ترحاب لكل من لا يستطيع حل اللغز(١٦).

ـ ان ماساة اوديب الحقيقية هي هذه الاحداث المقدر ان تقع لـه حسب النتيجة الحتمية التي اشارت اليها الآلهة . ويبدو واضحا ان هذه الاحداث خارجة تماما عن ارادة اوديب .

ـ فهو لا يعرف له ابا واما غير ملك كورنثة وزوجته . وله العـذر لانه نشأ في رعايتهما منذ كان ابن ساعته .

ـ وهو يعي قرابة الدم التي تربطه بملكه طيبه ، التي فوجيء ـ فيما بعد ـ بانها امه .

ـ اللاشعور الذي يستند عليه فرويد في تفسيره ، ليس شيئـا مكونا من الوهم . وانما يتكون من الظروف الموضوعية المحيطة بالانسان. فاذا كانت ملكة كورنثة ومليكها هما وحدهما الظروف التي احاطت اوديب في نشاته فكيف لنا ان نحكم على احساسه ـ اللاواعي ـ بالامومـة تجاه جوكاسته ؟

ـ والتضخم لهذه العقدة ، يقود المرء غالبا لان يشتهي امه جنسيا . وهذا ما لم يحدث لاوديب . لانه دخل على امه دون ان يعرفها وبالتالي دون ان تكون به العقدة المزعومة (١٧) .

اسطورة اوديب اذن تصور ماساة المجتمع اليوناني ، فتعبر عـن حاجته الى تفسير معقول لهذا الكون ومظاهر الحياة المختلفة بـين جنباته . والتفسير الذي كان هذا المجتمع الانساني البعيد فـي حاجة اليه ، ليس بالتحديد المفهوم الفلسفي الذي نعرفه اليوم(١٨). وانما كان يقصد بكلمة « التفسير » التعرف على القوانين البسيطـة لحياتهم اليومية ، ثم يسخرون هذه القوانين لانتاج مقومـات معيشتـهم المادية .. كان يعرفوا اصول الزراعة، ومواسمها واوقات المطر وغيرها..

ولم تكن الماساة الفردية التي انتهيت بها قصة اوديـب ، الا مصادفة قدرية اقـرب الى البناء التراجيدي الناجح الذي قصـد بـه الايحاء، بان كل شيء يهون في سبيل المعرفة .. الحياة . ولم تكن هناك بالتالي « ماساة جنسية » استهدفتها الاسطورة اليونانية .

هل معنى ذلك ، ان المجتمع اليوناني القديم ، خلا من مشاكل الجنس؟ ؟ كلا ... وانما كانت البداية الحقيقية لمشكلات الجنس هي وليدة النظام الاجتماعي الجديد في ذلك الوقت ، النظام العبودي . والاليـاذة باكملها تدور حول الشاب « باريس » ابن ملك طرواده ، الذي مـدح

---

(١٥) تاكيد الآلهة المختلفة لنهاية الماساة ، يدل على ان هذه النهاية نتيجة منطقية لاحداث الشر التي سيعبرها الفتى فيما بعد .

(١٦) واللغز هنا يرمز للمعرفة الانسانية .

(١٧) هذه النقطة تثير سؤالا : لو ان احداث الاسطـورة وقعـت بحذافيرها ، فيما عدا ان تكون جوكاسته ام اوديب ، اي لو لم تكـن هناك رابطة الامومة بين اوديب وبين الملكة التي فاز بالزواج منها بعد حل اللغز .. اكانت العناصر الباقية للاسطورة ، تستطيع صنع المأساة؟

(١٨) وان قام من بين افراد هذا المجتمع من حاول تحديد هـذا المفهوم ايضا .

افروديتا بانها اعظم الآلهة فتنة وجمالا ، فوعدته بالزواج من اروع امراة من هلينا ، زوجة منيلاوس ، شقيق اجا ممنون .واوحت افروديتا الى باريس بالذهاب الى بلاد اليونان لاخذ هلينا التي اغرتها الآلهة بالرحيل معه . عندئذ يغضب ملوك اليونان ، ويصممون على غسل هذه الاهانة ، فيجمعون امرهم ويعدون جيشا ويبحرون تحت قيادة اجا ممنون العظيم ، ليستردوا هلينا ويدمروا طرواده . وتستمر الحرب بين الفريقين عشرة اعوام يصف لنا هوميروس حوادث الشهر الاخير منها .

وهكذا يدور الصراع ـ كما تروي الالياذة ـ بين بلدين من اجل امراة . وفي الاودية ، يقتل تلمافيوس امه ، وينعم بالهدوء فوق جسدها ، لانها وقعت في الخطيئة (١٩) وكان كل من ابطال هوميروس يذكر وبجانبه اسيرة جميلة يشاركها البطل في الخيمة والفراش، ويصحبها الى منزل الزوجية . بل ان هوميروس يبدأ ملحمته بالدعاء لربات الشعر والتوسل بهن ليلهمنه الانشاد ، ثم يحدثنا عن اغتصاب ابنة كاهن ابوللون .

* *

والملاحظة الهامة في كافة الاساطير والملاحم والتراجيديات ، التي تروي قصة العلاقة بين الرجل والمراة في مختلف اطوار المجتمع الانساني ، ان هذه العلاقة كانت تتطور مع تقدم هذا المجتمع فاللقاء السريع الخاطف بين الذكر والانثى التي قضاها الانسان في بطن الغابة ، لايعنيه ـ في مقدمة احتياجاته ـ الا ما يمسك رمقه . ولم تتح له قدراته الذهنية امكانية التعبير الفني عن هذه العلاقة .

وتلا ذلك مرحلة الزواج الجماعي في ظل الملكية الجماعية لوسائل الانتاج . فلم تبرز العلاقة الجنسية كمشكلة بين الافراد ، وان صلحت للتعبير عن حاجاتهم المشتركة الى الخصب والنماء في بقية اشكال ومقومات الحياة الانسانية . وجاءت الطقوس السحرية تلخص لنا هذا المفهوم الجديد .

وكانت الاسطورة هي الجزء القولي من الطقوس السحرية (٢٠) ، فما ان دخل المجتمع الانساني مرحلة جديدة في ظل الملكية الفردية ، حتى اخذ معه الاسطورة كقالب فني يتسع لخبراته الوافدة وتجاربه المستمدة من واقعه الجديد .

ومن الواضح ان المراة اصبحت ـ فجاة ـ في وضع مهين . لان المساواة الاقتصادية الاولى بينها وبين الرجل ، قد تلاشت تدريجيا. واصبحت العلاقة الجنسية بينهما تخضع لاعتبارات ، لم تكن موجودة من قبل . بل ان هذه العلاقة خرجت بالتدريج ايضا من حدودها الطبيعية التي كانت تعتمد على مجرد الرغبة والتوافق بين الاثنين.. الى حدود استحدثتها الظروف الجديدة المحيطة بكليهما .فلم تعد الرغبة والميول المشتركة هي الخطوط الشرعية للزواج ، وانما اقبلت المصلحة الاقتصادية لوضع هذا التخطيط . ولما كان الانسان بطبعه عاجزا عن قتل رغباته وميوله ، فان هذه جميعا ـ لو انه استطاع تنفيذها في غفلة من الخطوط الشرعية ـ لاستطاع المجتمع ايضا ، ان يضعها تحت بنود جديدة تسمى الزنا والبغاء .. الخ وراح الانسان يعبر عن ازماته الحديثة ، وصافها في اشكال مختلفة وقوالب متباينة ... وان تشابهت جميعها ، في انها جعلت من الجنس « مشكلة » و « قضية » .

وقد تشكلت قضايا الجنس كمضامين فنية لقوالب التعبير في المجتمعات القديمة ، بان تعددت زواياها الانسانية .

فنرى الانسان البدائي يعبر عن الجنس كمشكلة قائمة بذاتها، كما لاحظنا في قصة « ابنتي لوط » فلم نعثر على اللحظة الميكانيكية في العلاقات الجنسية ، وان احسسنا في عمق ابعاد الازمة النفسية التي اجتاحت الفتاتين .

كما عبر ايضا عن الجنس كمشكلة عرضية ، ليست مقصودة لذاتها ، وانما جاءت مصادفة في ثنايا الاسطورة ، كالذي رايناه في قصة « شمشون ودليلة » وفي هذه ايضا عشنا المأساة باكملها في بيت زانية، ولكنا لم نحس باللحظة الجنسية في حركتها الميكانيكية ، وانما في مدلولها العميق .

ونجح الانسان القديم ايضا في ان يقدم القيم الرفيعة والمثل العليا في اطار من العلاقات الجنسية المنبوذة . وفي قصة يوسف مع امراة العزيز ، وقصة الاخوين في الاسطورة المصرية، وما شابهها في الف ليلة وليلة ، والادب اليوناني القديم .. نجد امثلة حية لهذا التعبير.

وصور الجنس في علاقاته الشاذة ، كما طالعناها في حكاية « جودر الصياد » واسطورة اوديب .. والعلاقة الجنسية في كليهما « شاذة » عن المعايير الاخلاقية السائدة ، أو التقاليد والعادات المألوفة . وعلى هذا النحو كانت الحكاية او الاسطورة ، صورة صادقة للمحتوى الفكري والاجتماعي لهذه البيئة او تلك ، في ذلك الوقت البعيد .

ثم جاءت آداب العالم فيما بعد ، ورات شبها قويا بين ملامح المجتمعات البدوية القديمة ، والمجتمعات الحديثة . والحقيقة ان هناك بالفعل « رابطة دم » بين المجتمع البدائي بعد دخوله مرحلة الملكية الفردية ، وبقية ما تلاه من مجتمعات قائمة على المباراة الاقتصادية .

وهكذا اكتشفت آداب العالم الحديث في اساطير العالم القديم ، وحكاياته ملاحمه ، قوالب جاهزة سرعان ما صبت فيها مآسيها الجديدة . فنرى اوسكار وايلد يتخذ من قصة « سالومى » في التوراة، خامة فنية لاحدى دراماته . وكثير من الشعراء صنعوا من « نشيد الانشاد » اشعار تفيض بحرارة الحب الجنسي . شمشون ودليلة ، اصبحا من الشخصيات الحية في ادب العالم . وهناك الف ليلة وليلة التي امدت كبار الادباء باخصب اعمالهم مثل هملتوف وديدرو وبيير لويس ولسنج وبومارشيه .

ويبقى سؤال ظل عالقا بمخيلتي منذ بدأت في كتابه هذا الفصل : هل يمكن القول بأن الحرية الجنسية الحقيقية ـ كما عبرت عنها الاداب والفنون ـ لا توجد في صورتها النموذجية الا في المجتمع البدائي ؟

والجواب ، نستمده من التطور التاريخي لمعنى الحرية نفسها .... فالانسان الاول الذي كانت تهدده الظروف الطبيعية القاهرة من كل جانب ، لا يمكن ان نسميه حرا .. والاتصال الجنسي الخاطف الذي كان يتم بين الرجل والمراة لا يعبر الا عن الحرية التي امتصتها ظروفها الشاقة المريرة . وما ان استطاع الانسان ان يسيطر على بعض مظاهر الطبيعة حتى اتسعت دائرة حريته ، فكان الزواج الجماعي تنظيما اكثر حرية عن ذي قبل . ولكنه في ظل الحاجات المعيشية المستمرة ، لم تعد العلاقة الجنسية ان تكون رمزا للخصب والازدهار . ثم تقدم الانسان خطوة اخرى . بعد ان تعرف على وسيلة جديدة رائعة للانتاج هي الارض . حقا جاءت معها اساطير ذلك العهد معبرة عن هذه الخطوة في النجاحات التي كان يحرزها الرجل ـ في مجال الجنس ـ في العصر البطولي . ولكن هذه الحريات جميعها ، مرتبطة بالضرورات الحياتية المحيطة بها ، لاتقاس بالحريات الجديدة التي احرزتها المجتمعات التالية في ظل التقدم العلمي. فكل خطوة علمية في طريق التقدم ، هي خطوات في طريق الحرية .

وعلى ضوء هذا المعنى ، لا تكون الحرية الجنسية عند الانسان القديم، هي افضل اشكال الحرية ، وانما كانت المظهر البدائي للحرية الحقيقية. ومن هنا اتخذ ادباء العالم من الاساطير القديمة ، القالب والشكل والاطار. اما الدلالة والجوهر الانسانيان ، فقد استمدوهما من صميم واقعهم الحي المتجدد .

للبحث بقية

غالي شكري

---

(١٩) د . محمد صقر خفاجة ـ تاريخ الادب اليوناني ـ (ص ٤٤)

(٢٠) اي انها مجموع الكلمات التي تروى بمصاحبة الرقص والحركات السحرية .